المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق
the Consultative Center for Studies and Documentation

تشرين الثاني 2017

أوراق عمل:

مستقبل المشروع الصهيوني

في ضوء تحولات البيئة الإقليمية:

من التفوق إلى اللايقين[1]

د. عبد الحليم فضل الله

أستاذ جامعي[2]

[1] ورقة مقدمة الى مؤتمر "وعد بلفور: مئوية مشروع استعماري...أي مستقبل للمشروع الصهيوني"، تنظيم: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن، المؤتمر الشعبي لفلسطينيي الخارج، بيروت 17 تشرين الاول 2017.

[2] رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق – لبنان.

تمر منطقة المشرق العربي في حقبة تحولات صعبة ومريرة. وبنظرة أولية، تبدو صراعات دولنا وانقسامات مجتمعاتنا السيناريو الأمثل لكيان العدو، الذي طالما راهن على تفتيت الدول وانهيار الجيوش وانفجار هويات[3]. ومع ذلك تبدو "إسرائيل" قلقة وقليلة الثقة بالمستقبل ومحاطة بارتباك تاريخي غير مسبوق.

وعد بلفور ووعود أخرى: اللعب مع الرابحين

سأبدأ بملاحظة لها علاقة بوعد بلفور نفسه، قبل التطرق إلى وصف تحول البيئة الإقليمية وانعكاسها على نظرة "إسرائيل" لنفسها والمشروع الصهيوني للمستقبل.

لم يكن وعد بلفور في واقع الحال نتيجة روابط عقائدية أو عاطفية، بل يعود إلى أسباب سياسية مصلحية. هذا ما يراه الزعيم البريطاني ونستون تشرشل بعد ثلاثة عشر سنة من الإعلان، وكان حينها سياسياً خارج السلطة. يقول تشرشل: "عام 1917 كان الأكثر سواداً في الحرب، حاول خلاله المتشددون في الحكومة البريطانية استخدام كل ما يملكونه من إمكانات ونفوذ لإبقاء الأمم المساندة لنا موحدة في المعركة. كانت الحركة الصهيونية في العالم مؤيدة للحلفاء ولبريطانيا على وجه الخصوص وتأثير قيادات الحركة الصهيونية على الرأي العام كان دوماً لمصلحة لندن،.. ولذلك يجب النظر إلى وعد بلفور أنه تدبير عملي أتى في سياق قضية مشتركة"[4]. لقد وضع البريطانيون حينها نصب أعينهم الاستفادة من الشبكات المالية التي يمتلكها اليهود لتمويل الجهد الحربي وامتصاص أثر الديون الناتجة عن الحرب.

---

[3] يورد ديفيد هيرست في كتابه الجريء والغني عن لبنان "حذار من الدول الصغيرة" العديد من الشواهد والأمثلة التي تدل على نحو لا لبس فيه أنّ هدف "إسرائيل" كان من البداية تقسيم المنطقة والهيمنة السياسية على ما يمكن من دولها مثل لبنان. ولم يكن اجتياح لبنان برأيه الأبعد مدى بين النزوات الجيوسياسية التي راودت التيار العام في الفكر الصهيوني. ولا يمكن برأي الكاتب التغاضي عن مقالة غنية بعنوان "استراتيجية اسرائيل في ثمانينات القرن العشرين" ظهرت في مجلة كيفونيم التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية عشية اجتياح 1982، أو النظر إليها بوصفها مجرد هذيان من طرف مجموعة مجنونة، فكاتبها "أوديد ينون" كان سابقاً موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية الاسرائيلية. ومن بين ما تورده المقالة السطور الآتية.

"إن التفتيت الكامل للبنان إلى خمس دويلات محلية هو سابقة لكل العالم العربي، وتفكيك سورية ولاحقاً العراق إلى مناطق ذات أقليات عرقية ودينية تتبع النموذج اللبناني هو هدف إسرائيل الرئيس في المدى البعيد على الجبهة الشرقية، أما الإضعاف العسكري الحالي لهذه الدول فهو هدف المدى القريب. ستتفتت سورية إلى عدة دويلات وفق بنيتها العرقية والطائفية، ..وبالنتيجة سيكون هناك دولة علوية شيعية ودولتان سنيتان متصارعتان في حلب ودمشق وللدروز دولتهم أيضاً. اما العراق فلا بد من تقسيمه مثل سورية ولبنان إلى ثلاث دول تتركز حول المدن الرئيسية الثلاث الموصل والبصرة وبغداد إلى جانب دولة كردية مستقلة. وشبه الجزيرة العربية بكاملها مرشحة للتفكك...ويجب أن تكون سياسة إسرائيل في الحرب والسلم أيضاً إزالة الأردن من الوجود... ". انظر:

ديفيد هيرست؛ "حذار من الدول الصغيرة: لبنان، ساحة معارك الشرق الأوسط؛ قبرص: منشورات الرمال؛ الطبعة الأولى، 2013، ص: 140-141.

[4] د. ماري ناصيف الدبس؛ "ما بين وعد بلفور ووعد ترامب: مئة عام من العدوان والمقاومة"؛ مجلة الطريق؛ العدد 21؛ سنة 76؛ ربيع 2017؛ ص:86-87.

ولم يكن وعد بلفور لليهود هو الأول. فهناك من ينسب إلى نابليون بونابرت وعداً مماثلاً أطلقه عام 1798 أثناء حشده الدعم والتأييد لحملته على مصر، ودعا فيه يهود آسيا وأوروبا للقدوم الى القدس تحت الراية الفرنسية[5]. وقبل ذلك بقرنين طالب أوليفر كرمويل راعي الكومنولث البريطاني بتهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح، مستنداً إلى التغيير الذي أحدثته البروتستانتية في الإيمان المسيحي. لطالما تمسكت الكاثوليكية بأن مملكة الله الواردة في الكتاب المقدس (القدس وصهيون) هي مكان سماوي، فيما جعلت حركة الاصلاح الديني من إقامة اليهود لمملكتهم على الأرض شرطاً للأمل المسيحي بالخلاص. وفي عام 1841 كتب أحد الضباط البريطانيين (ويدعى تشارلز هنري تشرشل ويعده بعض الصهاينة الجدد من آباء الحركة الصهيونية) إلى رئيس مجلس الممثلين اليهود في لندن قائلاً: "لا أستطيع أن أخفي عنك رغبتي الجامحة في أن أرى شعبك يحقق مرة أخرى وجوده... يجب أن يحمل اليهود هذا الأمر على الصعيد العالمي وأن تساعدهم القوى الأوروبية". تأثر تشارلز تشرشل بالحملة التي أطلقها كل من روبرت بيل ولورد بالمرستون العضوان في البرلمان البريطاني "لإرسال اليهود إلى فلسطين بعد تحريرها من المسلمين"، وكان يرى أن سيطرة اليهود على هذه الأرض الجميلة والخصبة "سيقربها الى الحضارة الغربية ويبعث فجر نهضتها الحديثة".

ولم يطل الأمر كثيراً حتى اطلق مؤتمر لندن عام 1907 توصيات سرية عدة أبرزها فصل عرب آسيا عن عرب أفريقيا ثقافياً واقتصادياً وسياسياً بطرق عدة، وفصلهم مادياً بإقامة دولة لليهود في فلسطين[6].

وفي واقع الحال لا يمكن فهم وعد بلفور دون الأخذ بعين الاعتبار التحولات التاريخية المصاحبة له، والتبدل في موازين القوى المحيطة به والمشاريع الكبرى المتزامنة معه، وكل ما فعله اليهود الباحثين عن وطن قومي مزعوم، هو أنهم أحسنوا اختيار مقعدهم في قاطرة تلك التحولات، واستثمروا أيما استثمار ما يزعم أنه جذور دينية وثقافية مشتركة مع فئات واسعة في الغرب. هذه الجذور المشتركة هي التي دفعت الرئيس الأميركي توماس وودرو ويلسون إلى تجاهل توصيات لجنة كينغ -كراين التي أرسلها الى فلسطين لتقصي الحقائق، والتي كانت قاطعة في تحذيرها: إذا مضى المشروع الصهيوني قدماً فهذا سيشكل "نقضاً شائناً لحق تقرير المصير" الذي أعلنه ويلسون نفسه. لكن الأخير الذي ينتمي للطائفة المشيخية اختار أن يتجاهل التحذير قائلاً للزعيم الصهيوني الأميركي "لا تقلق، دكتور وايز، فلسطين لكم"[7].

---

[5] يصف آخرون الوعد النابليوني لليهود بالخرافة لافتقاره الى التوثيق الرسمي.

[6] وردت هذه التوصية وغيرها في وثيقة سرية صادرة عن المؤتمر الذي حمل اسم رئيس الوزراء البريطاني في حينه "كامبل بارنمان" وشاركت فيه دول اوروبية عدة من بينها فرنسا واسبانيا وايطاليا. للمزيد عن الموضوع نفسه راجع:

- إبراهيم أبراش، السياق التاريخي لصدور وعد بلفور وتداعياته على المسالة الوطنية الفلسطينية شؤون فلسطينية، شتاء 2016 ص 16-18.

و: -http://wbpalestine.com

[7] انظر: ديفيد هيرست؛ حذار الدول الصغيرة، م. س؛ ص: 22.

وليس بعيداً من وعد بلفور، كانت فرنسا وبريطانيا بمشاركة روسية تخططان لتقاسم السيطرة على منطقة النفوذ العثماني، من خلال اتفاق سري عقده كل من جورج بيكو (عن فرنسا) ومارك سايكس (عن بريطانيا) وسيرغي سازونوف (عن الامبراطورية الروسية قبل إطاحتها). يعترف هذا الأخير في مذكراته أنه ابلغ مندوبي باريس ولندن موافقة بلاده على اقتسام أراضي السلطنة العثمانية، بإلحاق بلاد الرافدين بإنكلترا وسورية وكيليكيا بفرنسا. أتى هذا الاتفاق نتيجة مسار جديد للعلاقة الفرنسية- البريطانية بدأ مع توقيع مجموعة من الاتفاقيات في 8 نيسان 1904 عرفت بالاتفاق الودي (Entente Cordiale)، وقضت بتسوية نزاعات استعمارية استمرت بينهما عدة قرون، وعلى إثر هذا التفاهمات نشأ ما يعرف بالتحالف الثلاثي الفرنسي-البريطاني-الروسي في وجه ألمانيا.

كان وعد بلفور جزءاً من حزمة ديبلوماسية أوسع حملتها بريطانيا لجمع المناصرين والحلفاء حولها، فمنحت في الوقت نفسه تقريباً وعداً للشريف حسين بإقامة مملكة عربية كبرى (كما أفصحت عن ذلك مراسلات مكماهون- حسين)، ودعمت الفكرة الكبرى (ميغالي آيديا) التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وعبرت عن تطلع قومي لإقامة دولة يونانية على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية من البحر الآيوني وآسيا الصغرى إلى البحر الأسود ومقدونيا وقبرص. اندثرت هذه الفكرة بعد هزيمة اليونان في الحرب التركية- اليونانية (1919- 1922)، وتلاشى الحلم العربي بالاستقلال والوحدة بالطريقة التي نعرفها جميعاً.

تحقق الوعد المشؤوم وأخفقت الأخرى. وهذا يعود هذا النجاح بالدرجة الأولى إلى وجود التقاء عميق للمصالح بين الحركة الصهيونية والأطماع الاستعمارية، عبر عنه بوضوح الانتداب البريطاني على أرض فلسطين، الذي كان هدفه الأول المندوب السامي هربرت صموئيل "اتخاذ التدابير اللازمة لضمان إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بالتدريج". ولا يقلل من قوة التزام الغرب عموما وبريطانيا خصوصاً بالمشروع الصهيوني، زعم كتاب صهاينة وجود تواطؤ بريطاني ذي نزعة لاسامية ضد اليهود منعت إنقاذ مئات الاف اليهود من مخالب هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية[8].

وبقول آخر، كان التواطؤ الغربي- الاستعماري شرطاً لازماً، لكنه لم يكن شرطاً كافياً لقيام دولة الكيان في فلسطين، فإلى جانب ذلك برز تصميم اليهود أنفسهم على المضي قدماً في مشروعهم الاستيطاني، ولأجل ذلك انتزعوا أسطورة أرض الميعاد من أنصار البعث اليهودي في فلسطين (الكنيسة المورمونية)، ثم رسخوا الأساطير المؤسسة للحركة الصهيونية، بقيادة يهودي علماني نمساوي هو تيودور هيرتزل (1860- 1904)، الذي جند كل قواه وإمكانياته لابتداع الأيديولوجية

[8] يكتب موشيه آرش في هآرتس مثلاً أن الأسطول البريطاني منع الناجين اليهود من المحرقة من الوصول إلى فلسطين، وان بريطانيا قادت الجيش الأردني عام 1948 في قتاله لمنع ولادة الدولة العبرية، وكانت آخر من اعترف بقيامها. إن كان من دلالة ذلك لو صح هو أن التوافقات الكبرى وتقاطعات المصالح الجوهرية، ليست قدراً نهائياً لا يمكن مقاومته وانها قد تهتز لأسباب ظرفية وموضعية. وأن شياطين التفاصيل قد تسود في نهاية المطاف.

الصهيونية، متواطئاً في ذلك مع مؤرخين غربيين كرسوا جهودهم لإحياء فكرة ارض الميعاد بصفتها حجر الأساس لأسطورة القومية اليهودية، بل ساهم مئات من علماء اللغة في إحياء اللغة العبرية القديمة وإكسابها صفة معاصرة وحديثة[9].

ما يمكن استنتاجه مما تقدم هو الآتي: إذا كان الشرط اللازم لنجاح وعد بلفور هو التآمر الاستعماري وتلاقيه مع أطماع الحركة الصهيونية، فإن الشرط الكافي هو أن هذه الأخيرة استطاعت تعريف مصالحها وأطماعها وأهدافها وطموحاتها بشكل صحيح ووضعت لتحقيقها استراتيجيات وتحالفات انتهازية ومتقنة.

وفي المقابل، عانى العرب من نقاط ضعف ووهن عديدة، أبرزها أنهم فشلوا في تحديد مصالحهم الحقيقية والتمييز بين الاصدقاء والأعداء. اتخذ العرب منذ البداية موقفاً عدائياً من السلطنة العثمانية أي أنهم وقفوا كما فعل اليهود إلى جانب الطرف الرابح في الحرب العالمية الأولى، لكن بخلاف أولئك ركنوا إلى حسن نوايا بريطانيا وراهنوا على حيادها وتفهمها ووعودها، وعوضاً عن أن يقيموا دولتهم، انتهوا في مؤتمر سان ريمو في لائحة الخاسرين، خصوصاً أنهم لم يمثلوا حاجة معتداً بها لأي من الرابحين. لقد انعكست عوارض هذا الفشل لاحقاً على الكفاح الفلسطيني ضد الصهيونية والاستيطان، الذي عانى فيما عاناه من صراع هوية بين المشروع الوطني الفلسطيني الذي أجهضته الحسابات السياسية الضيقة لبعض العرب، والمشروع العربي القومي (الذي عبر عنه الميثاق الوطني الفلسطيني) الذي ضاع في خضم الانقسامات العربية.

في مواجهة الغموض الاستراتيجي

سننطلق في قراءة مستقبل المشروع الصهيوني في ظل البيئة الإقليمية من تقليب أوراق مؤتمر هرتسيليا (2017) الذي يكشف عن ما يدور في عمق اللاوعي الصهيوني من هواجس وما يتضمنه من أطماع وطموحات وحلول، وبالاستناد أيضاً إلى التقدير الاستراتيجي السنوي لـ"إسرائيل" 2016-2017، الذي يكشف بدوره عن رؤية المؤسسة العسكرية والأمنية للمستقبل. هذه الوثائق وغيرها تقدم قراءات مليئة بالقلق بشأن مسار الأمور، مع أنّ تدفق مياه الأحداث تبدو وكأنها تصب في طاحونة التفوق الصهيوني.

أظهرت التحولات الإقليمية تغيراً في مصادر الخطر التقليدية المحدقة بـ"إسرائيل"، الجيوش النظامية بالنسبة إليها كانت الخطر الأساس، وكذلك قيام دول مركزية قوية تمتلك جيوشاً قوية في جوارها القريب وفي الحزام الأبعد. هواجس المقاطعة شكلت لها أيضاً تحدياً داهماً. كانت مضطرة طوال الوقت وفي مجالات عدة، إلى التعامل مع شركاء بعيدين. هي تنتمي جغرافياً إلى منطقة وسياسياً إلى مناطق أخرى.

[9] يعد إليعيزر بن يهودا (1858-1922): عرف "بمحيي اللغة العبرية"، كونه أول من أطلق مسار تطوير هذه اللغة.

تتلاشى مصادر القلق هذه وباطراد. الجيوش في الحزام المحيط بالكيان إما مدمرة (العراق)، أو مستنزفة (سورية)، أو محيّدة (مصر)، أو حتى متعاونة سراً وفي أقطار عربية عدة. لم يعد هناك دولة عربية واحدة متماسكة وصلبة في الحزامين المجاور والأقرب.

في مؤتمر هرتسيليا السابع عشر[10] الذي عقد في حزيران الماضي تحت عنوان "ميزان الفرص والتحديات في سبعينيات عمر الدولة"، تظهر "إسرائيل" غارقة في غموض استراتيجي غير مسبوق، وتعوم في بحر هادر من اللايقين. يعرض المشاركون في أعمال المؤتمر قائمة طويلة من التهديدات، تحتل فيها إيران وحلفاؤها موقع التهديد الأكبر لـ"إسرائيل" والمنطقة كلها، كما عبر عن ذلك كل من وزير الاستخبارات (إسرائيل كاتس) ورئيس الأركان غابي آيزنكوت ورئيس شعبة الاستخبارات هرتسي هليفي.

وللتهديد الذي يمثله محور المقاومة أبعاد عدة بنظر المؤتمر، آيديولوجية بدعوته إلى تدمير دولة إسرائيل، واستراتيجية بمحاولته "الهيمنة" على البيئة الإقليمية، وتكتيكية بسعيه إلى امتلاك كل ما تصل إليه يداه من سلاح تقليدي وغير تقليدي. يطلق الإسرائيليون مسميات وأوصافاً مذهبية على ما يحصل حولهم، لكنهم يلاحظون أن هذه الفوارق تتقلص أو تذوب كلّياً كلما تعلق الأمر بالموقف من كيانهم. يقول ايزنكوت مثلاً "إن إيران ترى في نفسها دولة عظمى إقليمية وتحاول فرض رؤيتها من خلال أذرعها المختلفة في لبنان وسورية وغزة واليمن والبحرين، حتى أنها تكاد- كما يضيف- أن تسيطر على ممرات حيوية مثل باب المندب، ولهذا الغرض هي تغض النظر عن التمايزات المذهبية والسياسية في هذه البلدان،

يفشل العدو في تحليله هذا في تبيّن الفوارق الدقيقة بين الدوائر الثلاث للسياسة الخارجية لقوى تحالف المقاومة ودوله. بالنسبة لإيران مثلاً هناك: دائرة الأمن القومي ذات السمة البراغماتية، والتي يمكن إخضاع قضاياها للتفاوض، والدائرة الاستراتيجية التي تتفاعل فيها المصالح والمبادئ، في إطار التعاون تارة والتنافس تارة أخرى بين القوى الأساسية في المنطقة. أما الدائرة الأيديولوجية فتشمل مسائل لا يمكن التفاوض عليها، مثل: معاداة "إسرائيل" ورفض الاعتراف بوجودها، ومناوأة الهيمنة الغربية والأميركية على المنطقة والتمسك بوحدة دولها وأقطارها. إن عدم التمييز بين هذه الدوائر الثلاث، يدفع العدو إلى الافتراض خطأً أن من الممكن دفع طهران إلى تقديم تنازلات في

---

[10] يعقد هذا المؤتمر سنوياً، وفيه ولدت أو على الأقل تكرست مشاريع خطيرة، مثل فكرة تبادل الأراضي والبحث عن وطن بديل للفلسطينيين. في هرتسيليا عام 2000 اقترح أن تكون سيناء وطناً بديلاً للفلسطينيين، وفي مؤتمرات 2003، و2004 و2008 تكرر الحديث عن مقايضة الأراضي. وفيما يبدو أنه دمج للفكرتين، يُطرح الآن تبادل أراضٍ بين الفلسطينيين والصهاينة تكون سيناء جزءاً منه. يتطرق هرتسيليا إلى قضايا أخرى ذات طابع استباقي وهجومي مثل تقليل الاعتماد على النفط العربي (2011)، وتكريس التفوق الإسرائيلي. بعد الاضطرابات العربية انتقل إلى التركيز على مواجهة عواصف الشرق الاوسط (2012)، والتعامل مع مخاطر الملف النووي الايراني، (2014)، ومع تحدي تفكك هوية الدولة عام 2016.

الدائرتين الأيديولوجية والاستراتيجية على غرار ما يفترض انها فعلته في المسائل المرتبطة بأمنها القومي.

مركزية خطر المقاومة تبرز أيضاً في موقف الكيان من الحرب السورية. المشكلة هناك هي تزايد الوجود الإيراني ومعه حزب الله، وبدء استعادة الدولة سلطتها تدريجياً ضمن توازنات ما قبل الحرب. حاول العدو منذ بدء الحرب السورية فرض قواعد جديدة للعبة، تحل محل قواعد الاشتباك المستندة إلى اتفاقية الهدنة. كانت "إسرائيل" طامحة منذ البداية إلى أن تكون عاملاً مؤثراً في رسم مستقبل سورية، ومن ورائها المشرق، لكنها عجزت عن ذلك. دعمت أولاً فكرة إسقاط الرئيس بشار الأسد، ثم تبنت فرضية الاستنزاف، لتكتفي لاحقاً - وعلى وقع الصمود الميداني - بمحاولة منع دمشق من استعادة حضورها ودورها الإقليمي[11]. أي أن القبول بأمر واقع أسمه "سورية المفيدة" القابلة للحياة، يجب أن لا يكون مقدمة لعودة "سورية الفعالة" الى الساحة الاقليمية. فالمطلوب هو فصل دمشق عن مداها الحيوي، وقطع تواصلها بالعراق والأردن وتركيا، وإقامة حزام من المجموعات المسلحة الموالية للعدو على حدود الجولان.

أظهر التدفق المتتابع للأحداث ضعف قدرة العدو على التأثير بمسارها، وبدا أنه الطرف الأضعف في المعادلات المحيطة بالشأن السوري وغيره من الصراعات الأخرى. وحتى إدارة رونالد ترامب الأميركية المتطرفة، لم تعر حتى الآن الاهتمام المطلوب لمطالب "تل أبيب"، بما في ذلك الخطوط الحمراء التي تحاول رسمها على حدود الجولان المحتل.

ينتقل العدو وعلى نحو تراجعي إلى الخطوط الخلفية في استراتيجيته. مكتفياً بمواجهة التحديات التي تهدد كما يزعم وزير الأمن الصهيوني أمنه المباشر: "لا نية لدينا بالمبادرة بأي عملية عسكرية في سورية، مع ذلك فنحن نتحرك ونبادر ضد واحد من ثلاثة أهداف: عندما يكون هناك مس بمنطقة سيادية إسرائيلية، وعندما تكون هناك عملية عسكرية ضدنا قيد التحضير، أو حين تهرِّب أسلحة ومنظومات متطورة لإحدى المنظمات الإرهابية".

وعلى العموم يشغل حزب الله نقطة المركز في توزيع المخاطر المحيطة بالكيان، كونه قوة عالية التجهيز والكفاءة، ويمتلك فعالية ميدانية فائقة ومرونة في اتخاذ القرار، وبراغماتية تكتيكية تتكامل مع صلابته الاستراتيجية. ليكون بذلك "التهديد الأساس لدولة إسرائيل في الدائرة الأولى التي تحيط بها".

بالمقابل تظهر داعش في عيون العدو فرصة ضائعة. فهي ليست خطراً قائماً بذاته، ولم يأت المشاركون في هرتسليا مثلاً على ذكرها إلّا في سياق عرض التحديات الكبرى المرتبطة بالخطر الإيراني، وتعداد الفرص ولا سيما فرصة توسيع التعاون مع الدول العربية.

[11] يبرّر آيزنكوت هذا التراجع في الدور الإسرائيلي بزعمه أن الاستراتيجية تجاه الأحداث في سورية قامت منذ البداية على الآتي: الحفاظ على حدود هادئة، عدم التورط في الحرب ومنع نقل أسلحة (متطورة) إلى حزب الله".

بالنسبة إلى "إسرائيل"، إذا كان انكفاء داعش خبراً سيئاً بحد ذاته، فإن الأسوأ هو أن يملأ محور المقاومة الفراغ. فمن الخطأ "التركيز على هزيمة داعش وإهمال معالجة أمر التأثير الإيراني"، برأي رئيس أركان العدو، وعدم التنبه "للإنذار الاستراتيجي المتمثل في حزب الله التهديد الأقوى على الداخل الإسرائيلي" برأي رئيس المؤتمر عاموس غلعاد. لكن الاحباط الإسرائيلي الأهم من التطورات السورية أبداها رئيس شعبة الاستخبارات هرتسي هليفي بقوله: "في سورية تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) يتقلص والنظام يستقر، لكن سورية ستبقى- كما يقول- أرضاً خصبة لعدم الاستقرار والإرهاب والخيبة"، في الوقت الذي يملأ فيه حزب الله وإيران الفراغ "وهذا ضد مصالح دولة "إسرائيل" وما يجب الوقوف بوجهه".." نحن نتكلم وهم يعملون" .

لكن فرصة كبيرة تلوح في أفق الكيان، هي توثيق الصلة وتوطيد العلاقات مع البلدان العربية. اللقاءات تصير علنية أكثر فاكثر والجرأة تزداد. حتى أن ليبرمان لم يتورع عن دعوة "السعودية ودول الخليج إقامة تعاون أمني واستخباراتي لكبح إيران وقطع أذرعها، في مقابل التطبيع التدريجي في البر والبحر" وصولاً إلى "إيجاد محور أمني إقليمي مقابل سلام اقتصادي إقليمي".

ومع ذلك يعترف العدو أنه ينتقل من الهجوم والفعل والمبادرة إلى الدفاع وردة الفعل والانتظار. ويعبّر وزير حرب الكيان بمرارة عن ذلك بقوله: "المشكلة تكمن في أن "إسرائيل" لم تحقق نصراً حاسماً منذ خمسين عاماً" ويضيف باستعلاء شوفيني "الحسم يجتذب العرب، فيما التردد يبعدهم، كل من ربط مصيره بنا خسر.. من الملك عبد الله إلى أنور السادات إلى بشير الجميل إلى جيش أنطوان لحد في لبنان الخ..." .

قليل من الفرص وكثير من التحديات

تعوم "إسرائيل" في بيئة استراتيجية متغيرة ومتحولة وقلقة. تزول تهديدات لتحل محلها أخرى، تندثر مخاطر وتولد من رحمها مخاطر أكبر. يورد التقدير الاستراتيجي السنوي لـ "إسرائيل" 2016-2017 (الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي في جامعة تل أبيب)، بضعة حقائق تنم عن تقلص تهديدات تاريخية مباشرة محيطة بالكيان، وفي مقدمها: تراجع خطر الجيوش (العربية) النظامية، والتزام الولايات المتحدة الأميركية بالحفاظ على أمن إسرائيل، واتساع هامش المصالح مع العالم العربي (بقيادة السعودية)، وتراجع أولوية "الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي"...

بيد أن التحديات الجديدة، تكتسب طابعاً غير تقليدي، ويصعب التعامل معها بناء على المبادئ التقليدية التي سار عليها الكيان منذ قيامه. صممت العقيدة الأمنية الإسرائيلية أساساً، لمواجهة منظومات وقوى تقليدية، وليس للتعامل مع حروب لا متناظرة، تخوضها تشكيلات غير دولتيه، لديها عمق شعبي، وتحظى بمشروعية مؤسساتية، لتكون بذلك جزءاً لا يتجزأ من الدولة بالمفهوم الواسع للكلمة، دون أن تكون بالضرورة سلطة أو جزءاً من السلطة. تعتمد المقاومة والقوى الشعبية المتحالفة معها في مواجهة أعدائها على القوة الناعمة (العقيدة، الإيمان، الانتماء، الإيديولوجيا...) أكثر بكثير من اعتمادها على القوة الصلبة، ولديها قدرة كبيرة على التكيف مع الظروف المختلفة، واتخاذ القرارات في ظروف صعبة.

يورد التقدير الاستراتيجي المذكور في صدارة التهديدات المحيطة بكيان العدو، ضعف مكانة الولايات المتحدة الأميركية التي لم تعد هي وحدها صاحبة القرار العالمي. ويضيف إليها لائحة طويلة من التهديدات الأخرى: الاتفاق النووي، نشوء أشباه جيوش معادية، ووجود حكومات إسرائيلية تقوم سياساتها على ردة الفعل، وبروز نواة لتحالفات إقليمية - دولية جديدة تضم دولاً عدة من بينها روسيا وإيران. هذا إلى جانب الحملة المتواصلة لنزع الشرعية عن إسرائيل ومقاطعتها، وتصاعد الاستقطاب الاجتماعي والسياسي في داخلها. أي أن الكيان يعاني في آن معاً من تراجع قوتيه الناعمة والصلبة.

يقع حزب الله وطهران والمقاومة الفلسطينية (حماس) حسب التقدير نفسه في صدارة الأخطار، ما يفرض على العدو المواجهة في ساحات متنوعة ومتعددة ويصعب إخضاعها لاستراتيجية موحدة ومتناسقة. يزعم معدو التقرير أن انشغال الأعداء والخصوم في المنطقة وضعفهم يمنح "إسرائيل" نافذة وقت لمواجهة التحديات الأكثر خطورة والأبعد مدى.

لكن مشكلة الكيان بنيوية ومتعددة الوجوه. ما زال يعتقد أنه الأقوى في المنطقة، الا أنه صار مضطراً إلى الاعتراف بأن قوته تنطوي على مفارقات عدة، أبرزها أنها تنمو بوتيرة أبطأ من نمو قوة أعدائها، وأن سطوته العسكرية ومكانته الاقتصادية والتقنية تترافق مع ضمور سياسي وتراخي روح القتال بصفته أحد عوارض ليبراليته الاجتماعية المتأخرة.

باختصار يتحول كيان العدو إلى دولة عادية شبيهة بدول العالم الثالث الأخرى، تحتاج دائماً إلى مظلة حماية خارجية، تقيها شر الظروف الصعبة وتساعدها على اتخاذ القرارات الحاسمة. نلاحظ هنا مقدار انحسار التأثير الإسرائيلي على السياسات الخارجية للولايات المتحدة الخاصة بالشرق الأوسط، فبعد 11 أيلول 2001 صارت واشنطن "جزءاً" لا يتجزأ من المنطقة، ومعنية أولاً وقبل أي شيء آخر بحياة جنودها من ناحية والدفاع عن مصالحها المباشرة من ناحية ثانية. صحيح أنها ما زالت كما تعلن معنّية بحماية حلفائها من "الاعتداءات الخارجية"، إلّا أنها لم تعد مضطرة للانغماس بمشاريع هؤلاء الحلفاء وتبني طموحاتهم وأطماعهم.

إنّ أبرز دليل على تراجع الزخم التاريخي للمشروع الصهيوني، هو أن انقسام المنطقة وبروز مشاريع الفدرلة والتقسيم والتفتيت، وتفكك الطوق المحيط بالعدو لم ينتشله من بحر اللايقين الغارق فيه منذ أكثر من عقد ونصف من الزمن. وهذا يدل على أن القصور الذاتي الذي يعانيه منعه ولا يزال من الاستفادة من نافذة الفرص الواسعة التي فتحتها له الاضطرابات العربية.

مفاهيم الأمن القومي: اضطراب في قاعدة الهرم

إن تغيرات البيئة الاستراتيجية في العقود الماضية لا سيما في السنوات الأخيرة، جعلت العناصر الرئيسية للعقيدة الأمنية ونظرية الأمن القومي الإسرائيليتين عديمة الصلاحية أو على الأقل غير متناسبة مع الوقائع الجديدة..

قسمت نظرية الأمن القومي الاسرائيلي المنطقة ومحيطها الحيوي إلى دوائر ثابتة تتفاعل فيما بينها، لكن ضمن حدود واضحة ومحددة تفصل بينها: دائرة وادي النيل بقيادة مصر، ودائرة بلاد الشام بقيادة دمشق أو بغداد، ودائرة الخليج. أو بتصنيف آخر أكثر اتساعاً: الدائرة العربية والاسلامية، والدائرة الأفريقية... الخ. المحيط الحيوي تبدل الآن، التفاعل الميداني صار قوياً إلى حد تظهر معه هذه الدوائر بمثابة دائرة واحدة ومسرحاً متجانساً للتحديات والفرص والتهديدات.

وبخلاف هذا التقسيم التقليدي للمنطقة والعالم، ينشأ من رحم الصراعات والمنافسات في المنطقة قطب إقليمي له امتدادات دولية. إذ لا يمكن التقليل من شأن أشكال التعاون والتفاعل والتحالف التي يشهدها المشرق العربي وغرب آسيا وصولاً إلى العمق الأوراسي، والتي سترسم صورة جديدة للمنطقة تختلف تمام الاختلاف عن المشهد الستاتيكي الذي انطبعت به طوال القرن العشرين.

من ناحية ثانية، مثّل دعم المجتمع الدولي، والشراكة مع الغرب والتحالف الوطيد مع إحدى الدول الكبرى، احد ركائز القوة التي يستند إليها العدو. لكن الغرب نفسه يتراجع، وتتغير أولوياته منصرفاً إلى معالجة مشاكله وأزماته المتكاثرة: الانقسام في أوروبا، الأزمة المالية والاقتصادية وتدهور البنية الصناعية في الولايات المتحدة، وتآكل قوتها الناعمة، والتمركز الآيديولوجي للأحزاب الغربية في

الوسط ما ترك فراغاً مهد لصعود الشعبوية، وانحدار المشاركة السياسية الى أدنى مستوياتها التاريخية.

لا بد من التمعن بالحقيقة الآتية: لم تعد أميركا تتحكم وحدها بسياسات العالم وقراراته المصيرية. ولم يعد كافياً الاحتماء بها وبالغرب عموماً لحماية كيان يعاني بدوره من مآزق بنيوية وتحديات جذرية ونقص مزمن في الشرعية، وتراجع الفعالية وانكسار روح المبادرة.

وكما سبقت الإشارة، قامت عقيدة العدو الأمنية، على ثلاثة عناصر: الاستباق والردع والانذار الاستراتيجي والحسم. تفقد هذه العناصر فعاليتها مع انتقال المبادرة من أيدي الجيوش الى يد المقاومة، التي تحولت من مجرد خطر تكتيكي إلى خطر استراتيجي وربما وجودي في وجه العدو. بدأ الخط البياني للمقاومة بالتصاعد من اللحظة التي تمكنت فيها بمفردها من الفوز بمعارك وحروب، وتحرير أراض بالقوة والدفاع عنها.

تفرض البيئة الاستراتيجية الجديدة على العدو التصرف على نحو مناقض للعناصر أعلاه: ينصاع لقواعد الردع اللامتوازي الذي تفرضه عليه المقاومة، ويستبدل تدريجياً أسلوب الحرب الاستباقية بالضربات الوقائية ذات النطاق المحدود، وتدل إخفاقاته الميدانية في لبنان وسورية وفلسطين بصورة لا تقبل الجدل، على فشل مبدأ الانذار الاستراتيجي المبكر وعجزه عن الحسم.

وبالخلاصة:

حتى الآن لم يتكيف المشروع الصهيوني مع البيئة الاقليمية الجديدة، ويحاول التعويض عن ذلك بربط مصيره بمصير الدول والقوى التي تعاني على نحو مماثل من عوارض الفشل ووطأة الرهانات الخاطئة والخاسرة. وفي هذا السياق يعمل العدو على المحاور الآتية:

أولاً: البحث عن عمق عربي ومظلة مشرقية، موازية للمظلة والعمق الغربيين. هذا يأتي ضمن مقاربة جديدة تقوم على نسج تحالفات وتفاهمات معلنة وغير معلنة ضمن أربعة محاور: دول شرق أفريقيا (أوغندا، أثيوبيا، جنوب السودان، كينيا)؛ ودول شرق المتوسط (اليونان، قبرص، دول البلقان،..)؛ والدول العربية التي تربطها معاهدات وصلات رسمية بالعدو (مصر، الأردن، قطر)؛ ودول الخليج وعلى رأسها السعودية التي تتبادل مع "إسرائيل" خدمات ترميم الشرعية: تخفيف النقمة التي تواجهها الأولى في الغرب لأسباب لها علاقة بصورتها، وكسر حدة حملة المقاطعة ونزع الشرعية التي تتعرض لها الثانية.

ثانياً: توسيع الهوامش الميدانية على حساب الاعتبارات السياسية والديبلوماسية، لكن دون الانجرار الى الحرب الواسعة. هنا يتخلى العدو عن مبدأ الحرب السريعة والخاطفة والحاسمة لمصلحة مبدأ الحرب الدائمة ذات التوتر المنخفض والإيقاع المضبوط، بعد أن نجح تحالف المقاومة في التغلغل عميقاً في لاوعي العدو، فصار تجنب الحرب بالنسبة إليه أفضل من الفوز فيها.

ثالثاً: التخفيف من نتائج التراجع الواضح في الوزن الجيو سياسي لدولة الكيان وفشلها في ايجاد وظيفة بديلة لتلك التي فقدتها بعد انتهاء الحرب الباردة. يحدث ذلك من خلال الالتصاق أكثر فأكثر بالولايات المتحدة الأميركية، لكن هذه المرة ليس من باب شراكة "إسرائيل" في وضع السياسة الخارجية الأميركية الموجهة للمنطقة، بل بصفتها دولة عادية تدور بفلك واشنطن وترتبط باستراتيجياتها.

يجد المشروع الصهيوني نفسه في لحظة مضادة ومناقضة للحظة وعد بلفور. فلا هو قادر على قراءة الوقائع والاحداث والتحولات قراءة دقيقة كما فعل قبل مائة عام، ولا يقف الآن الى جانب الطرف الرابح في الصراع الدولي وقوفه آنذاك، ولم يعد كما في حينه حاجة للقوى المتصارعة دولياً بل عبئا عليها، في ظل فقدانه للعزيمة والزخم الآيديولوجي وروح المبادرة التي وسمت مرحلة التأسيس.

تسير "إسرائيل" في رحلة الاياب من أبعد مسافة وصلتها منذ وعد بلفور، فيما نقف نحن على المفترق نفسه الذي وقفنا عنده قبل قرن من الزمن، فإما أن تنطلي علينا خديعة سايكس-بيكو جديدة، أو ننتج مشروعنا التضامني الإقليمي، انطلاقاً من انجازات المقاومة ومكاسبها التي تقاتل على طول الجبهة الفاصلة بين معسكر الوحدة والتحرير والتحرر الوطني من جهة ومعسكر الهيمنة والتفتيت والتدخل الأجنبي من جهة ثانية.